مجلّة الواحات للبحوث والدراسات
ردمد 7163- 1112
http://elwahat.univ-ghardaia.dz

المثقف العربـي والمجتمـع في زمـن العولمـة

سامية قطـوش
جامعة علي لونيسي- البليدة2- الجزائر
guettouche.samia @ gmail.com

الملخص–

نحن نعيش في عصر العولمة بكل تجلياتها كعملية تاريخية هي نتاج تراكمات شتي في المجتمع العالمي، أبرزها علي الإطلاق الثورة العلمية والتكنولوجية، التي جعلت العلم مصدرا أساسيا من مصادر الإنتاج، والثورة الاتصاليةالكبري.

ويمكن لنا بالرغم من الاختلافات الجسيمة حول تعريف العولمة وببيان ماهيتها الحقيقية . تعريفها إجرائيا بأنها سرعة تدفق المعلومات والأفكار والسلع والخدمات ورؤوس الأموال والبشر من مكان إلي مكان آخر في العالم بغير حدود ولاقيود.

ومن هنا بات يقع على عاتق المثقفين العرب بعد أن انتهت المعركة الإيديولوجية الكبري بين صراع الحضارات وحوار الثقافات، تهيئة المجتمعات العربية للتفاعل مع الآخر من منظور الندية المعرفية وبدون تهويل أو تهوين

Abstract –

We live in the era of globalization in all its manifestations as a process is the product of historical accumulations Shetty in the global community, most notably at all scientific and technological revolution, which has made science an essential source of production sources, Revolution and communication major. And it can in spite of serious differences over the definition of globalization and the statement was true what they defined as a procedural speed the flow of information and ideas, goods, services,

capital and people from one place to another place in the world without limits and Agiwd. It is here now falls to the Arab intellectuals after that ended the ideological battle between the big clash of civilizations and intercultural dialogue, the creation of the Arab communities to interact with the other from the perspective of cognitive parity and without exaggeration or underestimation.

مقدمـــة-

إن الحديث عن الثقافة في العقدين الأخيرين أصبح مختلفا تماما، وذلك راجع إلى أن أوضاع العالم قد شهدت تغيرات لم تعرف لها البشرية مثيل، فأصبح مشروع "الإنسان الكوني" يطرح نفسه بقوة في ظل المتغيرات الحديثة والكثيفة والسريعة التي تتفنن "العولمة" في توظيفها فأصبح الأمر يطال الطرح المتبنى في الواقع من خلال المظاهر المعولمة التي أصبحت تميز ملامح النسيج المجتمعي بكل ما تفرضه من مفاهيم جديدة تأكد أو بالأحرى تحاول أن تأكد أن "الغرب" هو المرجعية الأولى للريادة، وبأن قيمه الثقافية هي الملاذ الوحيد للتطور .وفي هذا الصدد يتضح أن موضوع "الهيمنة الغربية" يرسم أهدافه على المدى البعيد في إطار سعيه إلى خلق نموذج "مستهلك عالمي" حيث ينفرد هو بموضوع "الإنتاجية" حتى لا ينافسه احد في ذلك. وكما في المجتمعات كلها، فإن الخلل أصبح ملحوظا في مختلف نواحي الحياة الاجتماعية، ومختلف المؤسسات المجتمعية، فآثار "العولمة" أصبحت تطال الأسرة، المدرسة، الجامعة والمؤسسات الاقتصادية بفعل التطور المذهل لوسائل الإعلام والإتصال التي أصبحت تفتح الأبواب بلا استئذان، مع كل ما تحمله من تأثيرات مختلفة على العقل والوجدان، ولا نختلف اليوم حول الأزمة التي أصبح يعيشها المجتمع في ضوء الواقع المعيشي ووعي الأفراد بتأخر هذا الواقع، وما يترتب عن ذلك من مخلفات اجتماعية تكاد تصل أحيانا إلى الانسلاخ الاجتماعي عن مقومات الهوية الثقافية الوطنية.

ومن الطبيعي أن تتوجه الأنظار في مثل هذه الأزمات إلى الأفكار والثقافات السائدة داخل المجتمع، لكن لابد أن يكون هذا التوجه بعين النقد والتقويم من خلال إجراء قراءات لهذه الأفكار في ضوء التغيير الحاصل بغية الوصول إلى

صناعة "ثقافة" تتكيف مع هذه المعطيات بحيث تحسن توظيف المتغيرات الجديدة لتحقيق التوازن مع عجلة التقدم في العالم.

وتأسيسا على ذلك، يتضح الدور المنتظر من المثقفين، وتتضح بالموازاة معه ضرورة وجود خطوات جريئة في اتجاه مناهضة التقاليد البالية في ممارسة الثقافة إلى أساليب أكثر تحضرا وتكون في مستوى الطرح الكوكبي الجديد بعيدا عن شعارات الانعزال والسلبية في مسيرة الصمت الثقافي الرهيب ،ولابد أن نتذكر هنا أنه ما لم يجد المجتمع من يأخذ بيده ويعرفه ركب الدروب ويشرح له جغرافية الطريق الصحيح، فإنه لا لوم ولا أسى على الأمة ينفع بعد ذاك . وإنه لعلى عاتق المثقفين أولا يقع هذا العبئ ليكتمل المشروع بعدها بتفاعل الثقافي مع السياسي والاقتصادي والاجتماعي في اتجاه الأهداف المشتركة لبناء المشروع الحضاري العربي.

ونحن كما الآخرين ممن يحترقون حسرة على حال المجتمع اليوم لا نجد بدا إلا أن نتساءل عن الدور المنتظر من المثقف اليوم ؟ ما هي الخطوات التي يتبناها المثقف في مواجهة تحديات ومتطلبات العولمة،وكيف يمكن له تهذيب وتوظيف أطروحة " الإنسان الكوني" لخدمة المشروع الحضاري العربي ؟ كيف يساهم المثقف في إنتاج "رأس مال ثقافي" يحفظ توازن القوى داخل المجتمع في ظل الاختراق الثقافي الذي يشهده؟ ما هو الطريق إلى تأكيد المثقف لسلطته الثقافية داخل المجتمع ؟ كيف يمكن النهوض بالثقافة إلى مستوى الفعل والممارسة بعيدا عن التنظير والتجريد؟ وأخيرا هل من الممكن أن تحضر إجابات على هذه الأسئلة إذا واصل المثقف احترافه لثقافة الصمت؟ وذلك هو المفهوم الضمني للمثقف في علاقته مع المجتمع والذي نأخذ به ونناقش قضاياه في هذا المقال.

في معنى الثقافة والمثقف:

الثقافة هي الكل المتكامل الذي ينطق عن هوية الأفراد في المجتمع، وهي بذلك القالب الفكري الثقافي الذي يطبع سمات العناصر الثقافية الموصولة بمجمل أوجه الأنشطة الاجتماعية الأخرى في اتجاه تحقيق التنمية الشاملة داخل المجتمع في خلال تطوره الحضاري.

"فعندما يرصد الإنسان المتابع المستويات المتعددة التي يستعمل فيها مفهوم الثقافة والمثقف في المجالين العربي والإسلامي، يكشف أن هذين المفهومين لهما دلالات ومفاهيم عديدة وثرية، فالثقافة هي مجموعة النشاط الفكري والفني في معناه الواسع، وما يتصل بها من مهارات أو يعين عليها من وسائل"[1].

ولذلك كان على المثقف تحسين مهاراته من أجل الأداء الأفضل في أثناء نشطاته الثقافية المختلفة ومن أجل الإنتعاش المتواصل للوعي الحضاري عند الآخر من حوله في المجتمع، "فالثقافة هي العبقرية الإنسانية، مضافة إلى الطبيعة بغية تحوير عطاءاتها وإغنائها وتنميتها، وتدل أيضا على انكباب الإنسان بصورة منهجية على تنمية ملكاته الفطرية بدراسة الآداب والعلوم والفنون وكذلك بالملاحظة وبالتفكير، وعلى الصعيد الاجتماعي تدل كلمة "ثقافة" اليوم على جملة الوجوه الفكرية والأخلاقية والمادية والمذاهب القيمة وأساليب الحياة التي تميز حضارة من الحضارات"[2]

وتأسيسا على ذلك، تكون الثقافة أداة فعالة من أدوات التغيير الاجتماعي في المجتمع، ووسيلة من وسائل التنمية الاجتماعية التي لابد أن يجد وجوها كفؤة تغذيها بمختلف الجهود المنظمة في إطار السعي نحو رسم المعالم الثقافية الاجتماعة المميزة للمجتمع ، ولعل المثقفون هم أولى بنشر صورة الثقافة و ترسيخها في المشهد الاجتماعي وترك بصماتهم بصورة فاعلة في موازنة الحراك الاجتماعي.

ويتضح من هنا الدور المناط بالمثقف ومدى أهميته في معادلة التوازن الاجتماعي داخل المجتمع لما يمكن أن يمارسه من تأثير على الرأي العام من خلال المخزون المعرفي الذي يترجمه في نشاطات فكرية ثقافية تفعل من قيمة الثقافة في هيكلة البناء الاقتصادي والسياسي وربط التواصل بالتالي بين الثقافي والسياسي والاقتصادي وهو جوهر التكامل الذي نسعى إلى تحقيقه في المجتمع في إطار دفع عجلة التقدم الحضاري.

المثقف في مواجهة العصرنة

هناك نقطة أساسية نحاول أن ننطلق منها في دراسة الإشكاليات التي تواجه المثقف في الحياة المعاصرة، وهي أن هذه الحياة الجديدة أصبحت تفرض معاني ومفاهيم جديدة أيضا لا يجد المثقف نفسه على هامش التعامل بها ومعها،

فشبكة المعاني التي يتفاعل معها المثقف، ويتناغم مع أصولها ومفاهيمها المختلفة هي التي تحدد خيارات المثقف ومواقفه الكبرى في الحياة.

وتجدر الإشارة إلى أن إزالة الحواجز بين المجتمعات الإنسانية حسب ما تقتضيه متطلبات الحياة العصرية بالمفهوم العولمي لا يمكن أن يكون عبر تجاوز الثقافات الوطنية من خلال مشروع العولمة الذي "أوجد طرح جديد لوجود ثقافة عالمية موحدة... والثقافة هي الأخرى اندمجت أو تم دمجها داخل هذا النظام، ومن هنا أصبح السوق الدولي المتميز بالعولمة والشمولية عبارة عن مجموعات كبرى من الأفراد تتقاسم بغض النظر عن حدودها الوطنية نفس طرق الحياة، ونفس أنظمة القيم، ونفس الأولويات ونفس الأدوات والمعايير وبالتالي نفس العقليات السوسيوثقافية"[3]

إن تطورات الواقع والحياة المعاصرة بكل ما تحمله من تغيرات، أدخلتنا في مرحلة جديدة تتطلب من العقلاء في هذه المجتمعات الحضور الفعلي في معركة البحث عن الإجابات والبدائل الملائمة والتي تواكب العصرنة والتحديث وتحافظ أيضا على ثوابت الأمة. وقد يكون المثقف أمام كل هذه التحديات الجديدة التي يمر بها المجتمع العربي الأمل الأكبر في بناء فكر متجدد يساعد على التكيف مع أشكال ومعطيات الحياة العصرية في المجتمع بحيث يسمح بالريادة، وعلى مستوى الواقع ومظاهر "المعاصرة" يجد المثقف نفسه أمام إشكاليات ومعضلات خلفتها تعقيدات وأزمات الواقع المعاش، مما يفرض عليه إيجاد تصورات فكرية اتجاهها يتمكن من خلالها تجاوز هذه الإشكاليات حتى ينطلق في معادلة إيجاد التوازن ما بين الحداثة والمعاصرة.

المثقف والمجتمع...علاقة تفاعلية

إن تفاعل المجتمع مع الثقافة والمثقفين هو الذي يخلق أنماطا متميزة من الوعي والسلوك، ومنظومات قيم وقواعد اجتماعية وعقلية ترفع بالمجتمع ككيان قدما نحو ولوج آفاق البناء والتطور.

والتفاعل بين الثقافة والمجتمع هنا لا نقصد به المتابعة المستمرة للمناشط الثقافية التي تجري في داخل المجتمع، وإنما نقصد بالتفاعل وجود حالة مماثلة وانسجام تام بين تطلعات الثقافة وحركة المجتمع.

فالمجتمع الذي يبني ويوجه في حقول السياسة والاجتماع والاقتصاد ضد منظومته العقدية وذاته الحضارية، لن يجني من هذا التوجيه إلا المزيد من التأخر وبعثرة الطاقات والجهود، بينما المجتمع الذي يتصالح مع ذاته ويتناغم في حركته وأعماله مع منظومته العقدية، يبدأ بشق طريق التقدم، ولذلك فإن انتشار الثقافة لا يتحقق خارج إطار الزمان والمكان ولا بمعزل عن أبناء المجتمع وإنما لا بد من وجود مثاقفة ومفاعلة.

كما أن المثقف مطلوب منه اليوم أن يجس الفجوة والهوة التي تفصله عن مجتمعه حتى يتسنى له بعد ذلك القيام بدوره المعرفي تجاه مجتمعه ومحيطه، ومن الضروري أن يحمل المثقف رسالة اجتماعية يبشر بها ويدعو الناس إليها، ويسعى نحو تعميمها في الوسط الاجتماعي، ويوضح "محمد محفوظ" إقبال الفرق بين المثقف ذي الرسالة الاجتماعية، والذي يسعى نحو تعميم المعرفة والعلم، والمثقف المنعزل الذي حصر العلم بنفسه فقط، ويقول إن هذا يبين الفرق بين من آمن بفكرة فآل على نفسه أن ينشرها في الناس ليعم نعيمها، ومن آمن بفكرة فقصرها على نفسه لينعم بها، ولا عليه بعد ذلك أن يشرك معه الناس فيها وهكذا من الضروري أن يتفاعل المثقف مع مجتمعه، لأن هذا التفاعل هو الذي يؤسس العوامل الكفيلة بتوليد المعارف والثقافات التي ترفع من شأن المجتمع[4]

و لقد اجتهدت في تصور و رصد العلاقة بين المثقف و مجتمعه، فوجدت أنه يمكن تناولها من أبعاد مختلفة يتباين مضمونها بتباين التأثير الذي يمكن أن تمارسه الثقافة في المجتمع في ضوء المتغيرات الجديدة التي تطال الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية، وسنحاول هنا التمييز بين أربعة أبعاد أساسية وتشمل هذه الأبعاد:

1- البعد السوسيو اقتصادي:

يتبنى هذا الطرح فكرة محاولة قراءة العلاقة بين الثقافي والإقتصاديمن مدخل التأثير المتبادل بينهما، والنتائج المحصلة لهذا التأثير و دورها في هندسة معالم المشهد الاجتماعي.

"وقد قدم فيبر أطروحته القائمة على أن القيم الثقافية هي التي تحدد نوع ومستوى النشاط الاقتصادي. وإذا كانت الرأسمالية هي التي خلقت الثورة

واقتصاد السوق، فقد كان ذلك بفضل القيم الثقافية التي خلقتها، فالبشر وهم يكونون معتقداتهم وأفكارهم وقيمهم وتصورهم للعالم إنما يعكسون مرحلة تاريخية من تطور علاقاتهم المادية والثقافية ،تتطور بتطور الشروط المادية لحياة الناس في حقبة تاريخية معينة. إن المحدد الحاسم للنشاط الاقتصادي عند ماكس فيبر هو القيم الثقافية، وليس الواقع الاقتصادي...[5]

وهنا قد يهمنافرضا، مذهب الليبراليين الجدد، فهؤلاء اعتبروا أن قيم الثقافة الغربية هي وحدها خالقة الثروة واقتصاد السوق : حرية المبادرة، والمنافسة المشروعة، وأخلاقية الثقة، وضبط الوقت... فهؤلاء الليبيراليون الجدد يرفضون مبدأ التضامن والعدالة الاجتماعية لأنها لا تنصف أصحاب القدرة على المبادرة والدراية والجهد الدؤوب"[6].

وهنا يجد المثقف نفسه أمام معطيين نقيضين :

إما أن يواكب المعنى العام الجديد العصري لعلاقة الثقافة بنمط الإنتاج الاقتصادي الذي هو ضد فكرة التضامن بل مع إرساء قيم المنافسة... وإما أن يوظف المفاهيم الثقافية من أجل تكريس قيم التضامن والعدالة الإجتماعية، وفي هذه الحالة يجد نفسه مضطرا لإعادة صياغة وإرساء قاعدة من المفاهيم الثقافية ذات القابلية والمرونة للتكيف مع المتغيرات الجديدة وما تحمله من مضامين ثقافية معولمة. بحيث يواكب من خلال ذلك العصرنة من دون التفريط أو التخلي عن ثوابت ومقومات الهوية الثقافية الوطنية داخل المجتمع.

2- البعد السوسيو سياسي للعلاقة بين المثقف والمجتمع :

كثيرا ما يشتكي المثقف العربي من أن الأنظمة السياسية تضيق عليه حرية التعبير، ويشكو من فكرة التهميش التي يعيشها بسبب انفراد أصحاب القرار دون الإلتفات إلى فكره أو خبراته، بل أكثر من ذلك أحيانا يكون فعل التهميش هنا مقصودا لأن المثقف كفكر وكروح يتبنى خطابات كثيرا ما تتسم بالمعارضة.

و بين هذا و ذاك يتسلل إلى أذهاننا سؤال جوهري للغاية: هل المشكل في وجود هذا الموقف هو راجع إلى عزوف ثقافي من قبل أصحاب القرار عن الخوض في مسائل الثقافة التي يطرحها المثقف؟ أم أنه عزوف سياسي للمثقف عن الخوض في مسائل السياسة التي يطرحها أصحاب القرار؟

إذن هناك فجوة بين المثقف والسياسي، فكثير من المثقفين يشتكون من عدم اهتمام رجال السياسة بما يكتبونه، وفي هذا الصدد يضع الدكتور : "علي أومليل" شرطين أساسيين قد يجعل السياسيين مضطرين إلى الإهتمام بما يكتبه المثقفون، الأول أن يجد السياسي فيما يكتبه المثقف جدوى وضرورة، ولن يتأتى ذلك إلا إذا كانت كتاباته خبيرة وموثقة، لا أن يكتب شعارات وعموميات وتذكيرا بالمبادئ وبمصلحة الشعب.والشرط الثاني هو قوة رأي عام متشبع بقيم الحداثة. فالمثقف حامل الحداثة، وهو يسعى إلى تأكيد سلطته الثقافية عليه أن يعمل من أجل تكوين رأي عام متشبع بقيم الحداثة، لأن هذا شرط لتأكيد سلطته الثقافية...[7]، فلا بد للمثقف أن يصنع لنفسه قواعد تمكنه من التأثير على أصحاب القرار من خلال التواصل مع الرأي العام الذي يتغذى بنزاهة المثقف في النظر إلى الأشياء والمواقف والأحداث في أثناء كتاباته ورؤاه الفكرية المختلفة.

وبناء على هذا، تتضح ضرورة الحوار بين المثقف والسياسي في المجتمع، بحيث لا يكون هذا الحوار غاية في حد ذاته، وإنما وسيلة نحو الاتفاق أو التوافق على قيم مشتركة تنضج بالممارسات الفعلية في المجتمع من جهة، وبالمعارف العلمية للمثقف من جهة أخرى، ويسير هذا في اتجاه تحقيق التوازن والتفاعل الإيجابي بين السياسي والثقافي في المجتمع. وتأسيسا على هذا لابد أن يدافع المثقف عن شرعية وجوده وحريته في الفكر والحركة والعمل من أجل تنمية الحركية الاجتماعية في المجتمع. فالتكلفة الإجتماعية للصمت الثقافي تكون باهضة لأن العدالة الاجتماعية تقتضي ألا تنفصل الثقافة عن أهدافها الاجتماعية.

3- البعد السوسيو ثقافي للعلاقة بين المثقف والمجتمع :

إن المعطيات الجديدة في المجتمع أصبحت تفرض على المثقف اندماج وتكيف من نوع جديد، أصبح المثقف مطالب بتكييف نفسه مع "مجتمع المعرفة" كما

يطلق عليه، وهو "حاضر المجتمعات المتقدمة، وهو مستقبلنا لكي لا نظل على الهامش في عالم اليوم"[8].

الثقافة إذن أصبحت فاصلة في التقدم إلى الأمام نحو الحداثة والمعاصرة، أو الركض نحو الخلف وإضاعة المستقبل في الوقت الذي يزداد فيه الصراع على المعرفة الذي هو الآخر أصبح يمثل السمة الأساسية لبسط النفوذ والسلطة في المجتمعات، ولنا هنا أن نتصور الدور المنتظر من المثقف في خضم هذا السباق التاريخي بكل ما يحمله من خلفيات ثقافية وإجتماعية وسياسية تتطلب منه أن يقرأ أفكاره بصوت عال وبدرجة عالية من المرونة التي تحفظ معالم الهوية الثقافية في المجتمع من جهة، وتواكب طريق التحديث والعصرنة دون الخدش بالثوابت والقيم، "فإدارة التحديث ولو كانت قسرية لا يمكن أن تجعل مجتمعا غير غربي يصير غربيا متطابقا. يبقى أن الحداثة طرقها متعددة، فهي ليست متطابقة بل متعاصرة، كل مجتمع قد يصبح حديثا حداثيا على طريقته، فهي حداثات متكافئة، ندية، أي متعاصرة. إن حداثتنا –إذ نحن أنجحناها- ستكون متميزة عن الغرب، لكنها مكافئة له ومتعاصرة معه، لكنها ستجعلنا أيضا متميزين عن الأسلاف"[9].

فظاهرة الغزو الثقافي التي تسطو على المجتمع لم تتراجع بقدر ما تحلت بلباس جديد يتلاءم مع معطيات العصر الجديدة، وهو بهذا الشكل حملة ضد ثقافات هي مناهضة للثقافة الغربية التي تسعى إلى عولمة الثقافة وخلق نموذج الثقافة الأوحد، وبناء على هذا فنحن "معرضون لغزو ثقافي مضاعف، الغزو الكاسح الذي يحث على مستوى عالمي والغزو الذي تمارسه علينا الدول الإستعمارية التقليدية، أما الوسائل فهي نفسها الإعلام بالمعنى الواسع والمتشعب، الإعلام الذي يغزو العقل والخيال والعاطفة والسلوك والأذواق والعادات...إلخ، تهدد الثقافة الوطنية والقومية في أهم مقوماتها، وترسيخ ثقافة عالمية موحدة مبنية على أساس الليبيرالية وديمقراطية السوق وسيادة المستهلك العالمي الأوحد. فالغزو الثقافي أو الاختراق الثقافي إنما هو مرحلة غزو واختراق للنفوس بعدما غزت القوة الأبدان والأجساد، والهدف إخضاع النفوس إنما هو غزو العقل وتكيف المنطق، توجيه الخيال، صنع الأذواق،

ترسيخ نوع معين من القيم، تكريس إيديولوجيا خاصة، إديولوجيا الاختراق"10

فظاهرة الغزو الثقافي إذن هي وجه من الوجوه المكشوفة الآن للعولمة بكل ما تمارسه من تأثيرات مختلفة على جميع الأصعدة في المجتمع، وعليه يقع على عاتق المثقف التصدي لمثل هذه المشكلات والمظاهر المعولمة في علاقته المتواصلة بالمجتمع.

الثقافة وتحديات العولمة

إن العولمة هي ظاهرة معقدة الأوجه، وقد فرض هذا المصطلح "عولمة" نفسه بقوة ليطال العالم بأكمله محدثا تغييرات في مختلف جوانب الحياة الإجتماعية، الإقتصادية، السياسية والثقافية تحت قيادة ثورة تكنولوجيا المعلومات.

وبناء على هذه الضجة الفكرية الإيديولوجية الكبيرة اهتم المشهد الثقافي والاجتماعي والسياسي العربي بشكل كبير لموضوع العولمة كمشروع كوني، وبدأت التساؤلات تطرح حول هذا الموضوع، فهل العولمة هي خطر كوني يترصدنا أم الخطر يكمن في غياب مشروع حضاري عربي يستجيب لمتطلبات العولمة ويكون بمثابة تأشيرة لدخول الألفية الثالثة بشكل إيجابي فاعل وليس البقاء في محل المفعول به وحسب. "ويبدو الحديث عن الثقافة في زمن التكتلات الضخمة ومشاريع الأمم الكبرى والحضارات الكونية والعولمة الإقتصادية، أشبه بالسباحة بعكس التيار، ولكن ثمة حقيقة تشفع لنا البحث في هذه المسألة في هذا الزمن، ألا وهي جملة التحديات التي تواجه الثقافات المحلية والوطنية من جراء مشاريع العولمة والكوكبة في إطار من الغلبة الشاملة، ولا تنبع التحديات التي تواجه الثقافات الوطنية من لقاء ثقافي حضاري بين ثقافتين لا متكافئتين، أو بين نظامين معرفيين متمايزين، وإنما التحديات من لقاء أمة متخلفة، ضعيفة، منهكة القوى، لا تمتلك مقومات السيادة الذاتية، وبين أمة قوية، متقدمة، تمتلك كل مقومات القوة والهيمنة"[11].

وبناء على ذلك فإن التحديات الحقيقية التي تواجهنا هي تتعلق أكثر بمعادلة غير متكافئة لشعوب قد قطعت أشواطا في اتجاه التطور حتى وصلت إلى طابع العالمية، مما يجعل هذه التحديات تقرأ على جميع مستويات

التفاوت الإقتصادي، الثقافي، السياسي والحضاري، و تظهر هنا أهمية الثقافة الوطنية التي تصنعها الشعوب المغلوبة حضاريا في إطار السعي نحو التخلص من حالة الاغتراب و الارتهان الحضاري من اجل الحفاظ على ذاتها الثقافية.

وهذا الاغتراب إنما هو انعكاس لسياسات تسعى إلى بسط السيطرة والنفوذ الغربي ولكن دون اللجوء إلى الفعل الاستعماري العسكري، لأن الأدوات الإستعمارية في عصر العولمة أصبحت تتسم بالرقة والجاذبية، لأنها تخاطب العقول والوجدان، ولذلك فهي تجذب انتباه الآخر من دون أن يقرر هو نفسه ذلك !!

وهنا يتضح الدور المنتظر من المثقف من خلال أهمية "إعادة الاعتبار إلى عناصر الثقافة الوطنية والعمل على تنشيطها في النسيج المجتمعي، لأن بقاء عناصر الثقافة الوطنية ساكنة يعني تحول بعضها إلى فولكلور محلي، نشجع به السياحة ونحنطه في متاحف وأماكن أثرية لا غير"[12].

إن التعويل على المثقف في المحافظة على الهوية الثقافية والتأكيد على مقومات عناصر الثقافة الوطنية كفيل بتوعية الأفراد والشعوب للاستيعاب الأفضل لمعطيات العالم الجديدة.

المثقف العربي في زمن العولمة بين الواقع و المأمول..

لكل ثقافة هويتها الخاصة التي تنطلق منها وتخضع لها، ويجد المثقف العربي نفسه في خضم أطروحة الإنسان الكوني أو النموذج الكوني التي يسعى الغرب إلى تجسيدها من خلال مختلف مظاهر الاختراق والغزو الثقافي الذي تمارسه العولمة على الأمم والشعوب. أمام موقف جديد شديد التعقيد، وفي هذا المضمون يطرح الدكتور "أحمد مجدي حجازي" في كتابه: "الثقافة العربية في زمن العولمة" سؤالا هاما هو: "هل باتت الثقافة تنهل أسباب وجودها وشخصيتها من مصادر خارج المجتمع الوطني؟ وهل ستصبح الثقافات عبر الزمن موحدة؟ وهنا وللإجابة عن هذا التساؤل نجد اختلافا في موقف المفكرين حول هذا الموضوع حيث يضيف الكاتب: اختلف الباحثون، فمنهم من يرى في عولمة الثقافة تجردا من الولاء لثقافة ضيقة ومتعصبة إلى ثقافة عالمية واحدة يتساوى فيها الناس والأمم جميعا... ويذهب فريق آخر إلى أن عولمة

الثقافة لا تلغي الخصوصية بل تؤكدها حيث أن الثقافة هي المعبر الأصيل عن الخصوصية التاريخية لأمة من الأمم، ومن ثم لابد من وجود ثقافات متعددة متنوعة تعمل كل منها على الحفاظ على كيانها ومقوماتها الخاصة"[13]

ومهما كان الموقف من العولمة نجد أن هناك حذر شديد من التعامل معها، حيث أصبحت آثارها تمتد إلى عمق الهوية الثقافية ومقومات الشخصية القومية العربية بسبب ما تتناقله وسائل الإعلام من نماذج معولمة حول مختلف نواحي الحياة الاجتماعية الاقتصادية والثقافية مستعينة في ذلك بمختلف صور التأثير والجذب والإثارة التي تتوجه إلى عقول ووجدان الشعوب العربية.

وبناء على هذا لابد أن يتوقف المثقف أمام هذا المناخ العام الذي أصبح يلح بضرورة التفكير والتساؤل والبحث في مصير الهوية الثقافية الوطنية وذلك من خلال محاولة بلورة انتاجات فكرية تتجسد في ممارسات عملية. وهنا يطرح السؤال حول دور المثقف حيال هذا الوضع.

والواقع أننا هنا نلاحظ موقفين للمثقف، أحدهما أن البعض من المثقفين يدخلون في صراعات مع السلطة، بحيث ينفون مشروعيتها، مما يوصلهم في الأخير إلى العقوبات من سجن وتصفية، أما الفريق الآخر فهو من زمرة المثقفين الذين انضموا إلى أجهزتها وأصبحوا يمثلون إيديولوجياتها وأصبحوا يمثلون شرعيتها ويدافعون عنها كيفما كانت الأحوال. ومهما اختلف الموقفان إلا أن كلاهما يجيب عن التساؤل المطروح وهو أن علاقة المثقف بالمجتمع بهذه الطريقة كثيرا ما تكون سلبية إن لم نقل عقيمة في ضوء الصمت الثقافي الذي يمثل المحصلة النهائية للموقفين والذي يسجل المثقف دائما على هامش المشهد الثقافي والاجتماعي والسياسي والاقتصادي داخل المجتمع، "فليس المثقف قائدا للأمة والمجتمع، إنه فاعل فكري يسهم في عقلنة السياسات والمعلومات أي هو عميل لا غنى عنه بين الواقع والقرار أو المعرفة والسلطة، وهو يتوسط الدولة والمجتمع حتى يساهم في الحول دون سحق الدولة للأفراد والجماعات أو طغيان المجتمع بقواه وطوائفه على الدولة والمجال العمومي، المثقف وسيط للحد من الاستبداد والطغيان بقدر ما ينجح

في خلق وسيط فكري أو تشكيل مساحة للمعرفة أو ابتكار شكل من أشكال العقلنة"[14] فالمثقف العربي مطالب بالحضور الفعلي من أجل تنظيم السياق الثقافي بحيث يصقل الإمكانات والطاقات في سبيل النهضة الثقافية والعلمية. وهو مطالب أيضا"بتأكيد الذات الحضارية في الثقافة العربية من خلال إعادة تنظيم الحياة العقلية والمادية والأخلاقية في المجتمع... وهذا يؤسس لعلاقة ينبغي أن تربطنا بتراثنا الحضاري. كما أنه مطالب أيضا بالتجديد الثقافي الذي يوفر القيم والأطر الضرورية لعملية التطوير المطلوب، إذ أن أي مجتمع لا يستطيع على كل حال أن يعلم بالخروج من تأخره واستدراك ما فاته من تقدم إلا على قاعدة إحياء ثقافية"[15]

وأخيرا، فلنقر جميعا أن المثقف في ظل هذه المشاريع المعولمة يبقى الأمل والمنقذ والمنجد الكبير في تحصين الفكر العربي من التصورات الغربية التي تسعى إلا خلق ثقافة موحدة، وهو بذلك المؤثر الأكبر في معادلة التنمية الشاملة للمجتمع من خلال الحضور الفعال والمتواصل.

المثقف العربي وثقافة الصمت.....إلى أين؟

في هذا العصر الذي تتكاثر فيه التطورات وتتضاعف فيه التحديات وتزداد الحاجة إلى الفعل، وفي هذه الظروف التي تشتد فيها التناقضات على جميع الأصعدة والمستويات، وتتنافر فيه النزعات وتتعقد فيه السياسات، أصبح ملاحظ أن الثقافي متأخر خطوات كبيرة عن هذه المجريات الجديدة إلى حد أن المساحة التي أصبح يجول فيها تضيق به أكثر فأكثر لأنها أصبحت تتسع أكثر للإنسان التقني الذي يمتلك وسائل الإنتاج والفعالية في مجالات عديدة.

" وبالمقابل تقتضي الموضوعية طرح السؤال عن دور المثقف المحتجب خجلا أو حيرة أو خوفا من الخطأ أو احتمال الفشل والإخفاق في بناء تصور لمستقبل العالم في زمن غياب الإشارات في الطريق؟ أو لا يحق لنا السؤال عن السر في ألا يجازف المثقفون بالسعي لوضع علامات جديدة في طريق لا إشارات فيه بعد انهزام الإيديولوجيات التقليدية التي كانت قائمة؟ ولما لا المجازفة بطرح السؤال من الأساس: لما لا يباشر المثقفون بصنع النواة الأولى لقيام مشروع

إيديولوجيا جديدة لا يدعي الأزلية ولا تنفي ما سبق؟ ولما لا يشرعون في صياغة تصور جديد للعالم لا يحتكر الحقيقة ولا يكون الأخير بدلا من التخلي وإفساح المجال واسعا لاقتصاد السوق، وتصور العولميين لنسق نيوليبيرالي في الاقتصاد والسياسة والثقافة يريدون أن يجعلوا لنا فيه إيديولوجيات بديلة؟ لعل ذلك يعود أساسا إلى تخلف الثقافي عن السياسي وإلى ما نعيشه اليوم من فراغ في التأسيس وانتشار لنظريات النفي والإنتفاء إما بالصراع أو الإستيعاب....فالناظر المتفحص اليوم وهو يسمع إلى ما يبشر بنهاية التاريخ وبصدام الحضارات أننا نعيش فترة انعدام الجاذبية الثقافية وأن تلك فرصة المثقفين في عالمنا العربي وخارجه لاقتراح نموذج ثقافي بديل يرتكز إلى القيم الإنسانية المشتركة ويهدف إلى إعتماد الحوار والتقارب والتسامح بابا لولوج المستقبل"[16]

والسؤال المحوري الذي يطرح نفسه الآن هو: كيف ينبغي أن يتعامل المثقف العربي مع هذا المشروع الجديد؟

إنه لابد ألا يبقى المثقفون العرب على هامش المشهد الثقافي الاجتماعي والسياسي والاقتصادي وما يفرضه من تحديات تجاوزت حدود السياسي والاقتصادي إلى تحد ثقافي بارز يتكرر مرارا في الصور المختلفة لمشروع العولمة وما يحمله من مضامين معرفية تعكس الخلفية الفلسفية لهذا المشروع الكوني.

وبناءا عليه فلا بد أن يأسس المثقف لنفسه إستراتجية عمل لهذا العصر لأن "بقاؤنا سلبيين، وبدون أن تحرك فينا هذه التحديات حوافز العمل والفعل الثقافي الحضاري يحولنا إلى أسرى حقيقيين لثقافة الآخر وأولوياته واهتماماته ومصالحه، فعصر العولمة يدفعنا إلى ضرورة التفكير الجاد في محاولة العمل القادمة فيما يرتبط بالثقافة العربية"[17]

ولعله من الخطوات الأولى التي لابد من البدء بها هو تحصين المستقبل في المجتمعات العربية لمختلف الرسائل المعولمة فكرية كانت أم اقتصادية أم سياسية وذلك من خلال تفعيل نشاط المثقف في اتجاه نشر وتكثيف الوعي

بين أفراد المجتمع حتى ينتقي الأفراد في المجتمع العربي من هذا المشروع ما يساعدهم على الصدارة في العلم والمعرفة والتطور في إطار من العصرنة والتحضر، ولكن بشكل لا ينفي مقومات الثقافة الوطنية أولا يلغي معالم جغرافية المشهد الثقافي الذي يتسجلون فيه كعرب لهم من العناصر والمقومات الثقافية ما يستطيع أن يحول بفعل هذا الوعي الحضاري دون الخدش بهوية الثقافة العربية.

وإنه يقع على عاتق المثقفين مشروع التوعية هذا الذي ينقل الإنسان من فعل التقليد الأعمى إلى الرشادة الثقافية بعيدا عن أطر التقليد الضيقة أو خيارات التبعية العمياء لأنه حينذاك يملك أداة التبصر والتمحيص التي تسمح له وتمكنه من أن تكون ذاته فاعلة في معادلات الاختيار المطروحة في هذا العصر.

"إن من الأعمال ذات الطابع الإستراتيجي التي ينبغي أن يهتم بها المثقف ويعتبرها من أولويات أعماله ونشاطه، العمل على تأسيس حقائق ثقافية في المحيط الاجتماعي، لأن تأسيس هذه الحقائق هو الذي يجعل للمثقف دورا حقيقيا، ويمتلك تأثيرا فعليا في الوسط الاجتماعي والمقصود بالحقائق الثقافية السعي الجاد لتحويل مجموعة من الأفكار والقناعات الثقافية إلى مؤسسات ونوى اجتماعية تمارس دورها باعتبارها خلايا اجتماعية، تهتم بالشأن الثقافي وتسعى نحو تطويره وتجذيره في الحركة الاجتماعية، والجدير بالذكر في هذا المجال هو أنه بدون تأسيس هذه الحقائق الثقافية، سيبقى المحيط الثقافي طاردا للكفاءات الثقافية، أو غير مستوعب بشكل سليم لها، مما يدفع المثقف إلى العزلة والانفصال الفعلي عن المحيط الاجتماعي، ولعل هذا الذي يفسر ظاهرة هجرة الأدمغة المفكرة من العالم الثالث عموما"[18]

فالمثقف إذن لا يمكنه الحياة في محيط اجتماعي لا يكون له فيه مساحة للرأي وعليه بالمقابل ألا ينتهج منهج الصمت والركون إلى الهامش مهما كانت الأزمات النفسية التي يعيشها والتي تصيبه من جراء إرادات التهميش المقصودة لأن العمل الحقيقي الذي ينتظره هو إعادة بناء مكانة أفضل

للثقافة والمثقف من خلال كسر جدار الصمت في محاولات لابد أن تكون جريئة لتأسيس قراءات جديدة وبناءة تنير المحيط الاجتماعي، بدل أن يتخذ موقف الهروب والإنعزال والبقاء على الهامش بدون فعل أو تفعيل ثقافي.

إن المثقف العربي بهذا الشكل وفي ضوء هذه المعطيات الجديدة والمعقدة لابد وأن لا يكتفي بمقاطعة "ثقافة الصمت"، بل يجب أن يذهب إلى أبعد من ذلك فيتبنى أسلوب الصوت العالي" في مختلف الطروحات والرؤى الفكرية دون أن يخاف لومة لائم، لأن مبدأه في ذلك لن يحيد عن حب وخدمة العلم والمعرفة حيث يكون ذلك من أسمى أخلاقيات الإنسان المثقف.

خاتمـــة -

في ضوء المتغيرات الجديدة التي تفرضها ظاهرة "العولمة"، وفي ضوء المتطلبات الجديدة أيضا التي تفرضها ضرورة مواكبة التطور، لابد من إيجاد مخرج ثقافي للأزمات التي تعيشها المجتمعات وتتقاذفها في غياب مرجعية فلسفية علمية تتبناها. ولابد أيضا من تفعيل محاولات جادة لتقريب الثقافي والسياسي والاقتصادي وذلك من خلال خروج المثقف عن قوقعة الانغلاق الذاتي والصمت الثقافي بفضل بلورة الأفكار والمشروعات القادرة على تأهيل الأمة في مسيرة البناء.

ولنتذكر أنه قد قطعنا شوطا كبيرا في ترديد شعارات التنديد بالعولمة، ولنتفق أنه قد آن الأوان لأن نستثمر أكثر في محاولات جادة لتأسيس حقائق ثقافية في المحيط الاجتماعي بعيدا عن التنظير والقول المجرد. فانطلاق المثقف إلى جو الإبداع الثقافي الذي تتطلبه المرحلة هو أهم بكثير من الاحتباس في هذه الشعارات، واهتمام المثقف بإيجاد طروحات واقعية للأزمات داخل المجتمع هو من المهام الكبرى التي تنتظره، وانعتاق المثقف عن سياسة الصمت هو أول خطوة وأكبر انتصار قد يحققه على مستوى ذاته وعلى مستوى المجتمع الذي لا يمكن أن يفهم أو يقرأ أو يتطلع إلى واقعه ومستقبله وآفاقه إلا من خلال ما ينتجه هو من قراءات... فالله الله يا مثقفين تكلموا!!

المراجع–

[1]- محي الدين صابر: قضايا الثقافة العربية المعاصرة، تونس، 1983، ص 9

2- لويس دللو: الثقافة الفردية وثقافة الجمهور، تر: د. عادل العواد، منشورات عويدات، بيروت، ط2، 1982، ص ص8- 9.

[3]- يحي اليحياوي: العولمة والتكنولوجيا والثقافة، مدخل إلى تكنولوجيا المعرفة، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 2002، ص 32.

[4]- محمد محفوظ، الحضور والمثاقفة، المثقف العربي وتحديات العولمة، منشورات عويدان، تشرين الأول، أكتوبر 1976، ص 43.، البلد غير مذكور

[5]- علي اومليل: سؤال الثقافة، الثقافة العربية في عالم متحول، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 2005، ص ص 24- 25.

[6]- علي أومليل، نفس المرجع، ص ص 68، 69.

[7]- علي أومليل، نفس المرجع ، ص ص 70، 71.

[8]- علي أومليل، نفس المرجع ، ص 98.

[9]- علي أومليل، نفس المرجع، ص 100.

[10]- محمد عابد الجابري: المسألة الثقافية في الوطن العربي، سلسلة الثقافة القومية، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 1994، ص 199.

11- محمد محفوظ، مرجع سابق، ص 111.

[12]- محمد محفوظ، نفس المرجع ، ص 114.

[13]- أحمد مجدي حجازي: الثقافة العربية في زمن العولمة، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، 2001، ص 38.

[14]- إبراهيم عثمان: مقدمة في علم الاجتماع، دار الشروق للنشر والتوزيع، ط1، 1999، ص 176.

[15]- محمد محفوظ، ، مرجع سابق، ص ص 110- 111 بتصرف.

[16]- محمد محفوظ، نفس المرجع ، ص ص 110 ، 111.

17- محمد محفوظ، نفس المرجع، ص 115.

[18]- محمد محفوظ، نفس المرجع ، ص 122، 123